قصة قصيرة

صورة ملوّنة للجدار...

سعيد الكفراوي

هي في شرفة البيت.

تطلُّ على الميدان المشجَّر، وتتأمَّل نافورة المياه الملوَّنة، وفي أقصى المشهد قطرات من النور ليومٍ قد انقضى.

هو يجلس على كنبة من طراز عتيق، بيده الكتاب المفتوح، يطلُّ على صفحاته من خلال نظّارته السميكة واستغراقه الصامت الطويل.

قالت:

- بعد أسبوع عيد زواجنا.

رفع رأسه ونظر ناحيتها متسائلاً:

- هيه؟.

- عيد زواجنا.

- صحيح.

- العيد الكام؟ فاكر؟.

خلع النظّارة ووضعها على الترابيزة الصغيرة أمامه، ثمَّ هرش رأسه متفكِّراً وأجاب:

- أفتكر...

- تفتكر؟.

أجاب:

- التسعتاشر.

ضحكت، فجلجلت ضحكتها بالشرفة كأنَّها مياه النافورة وقالت:

- لأ. العشرين. دايماً كده تنسى.

دخلتْ من الشرفة وهي ماتزال تبتسم بتهذيب، وتناولت نظّارته وألبسته إيَّاها، ثمَّ طبطبت على رأسه وقالت:

- علشان تشوف كويِّس.

أحسَّ بالوخزة.

(كأنَّ الأمر قد اختلط عليّ، وعجزتُ عن احتساب السنين، ثمَّة أماكن في القلب تبرد فيها حرارتها، وتتولَّد مكانها حقائق مختلفة... لكن تلك قصّة أخرى).

خرجت من غرفة النوم وهي تبرد أظافرها بمبردٍ صغير.

قال متعجِّباً:

- عشرين سنة. عجيب إدراكنا لفوات العمر، ننتبه له فجأة. كأنَّنا واقفون على شطِّ نهرٍ نراقب التيَّار وهو ماشٍ.

قالت له:

- إلَّا صحيح، هو العمر فات؟

- يعني.

أدارت «الريكوردر» فهبط «موتسارت» من سمائه البهيجة، وامتلأتْ صالة البيت بنغم الملائكة. كان بمقدوره أن يراها قبل المغيب واقفة بوجهها الحسن، ومحياها الدافئ، وشعرها المسترسل الضارب في السواد، يأتيه صوتها بنبراته الطائرة ترفرف في فراغ البيت وكأنَّه الصدى.

قال لها:

- إنَّك تبدين دائماً جميلة.

كانت تقف تحت صورةٍ في الصالة تتأمَّلها كأنَّما تراها للمرَّة الأولى.

قالت له:

- المفروض أنَّه في المكان ده تتعلَّق فيه صورة زفافنا.

وخزة أخرى.

(وبدأت القصّة الأخرى تستدعيها بحذافيرها ككلِّ مرّة، وكأنَّني لم أتغيَّر).

وعاد بذاكرته.

(وكنتُ في البدء ذلك الفتى الفقير بحالةٍ مُزرِية.. نحيل وجافّ العود. أمتلك وجهاً يشي بعدم الرضى، يخفي بؤسه داخل البنطلون المكويّ، والقميص الحديث الطراز. أسكنُ بالقرب من مزرعةٍ للخنازير، عند التخوم الغربيّة للمدينة، حيث تتطلَّع «عين الشمس» قبل كلِّ الشموس، ولا تغرب إلَّا بعد أن تغرب كلّ شموس المدينة. أُحبُّ المغامرة، وأُطاردُ أوَّل أوهام الصبا الجميلة. أركبُ قطار الضواحي في آخر ليالي الشتاء مفارقاً أصدقائي الذين خلفتهم في المقهى. الآن، وبعد فوات السنين أسكن الحيّ الراقي. عندي «الستروين» الخضراء. أعاني من مرض الحساسيّة

المزمن، وأمتلك شرائط لـ «موتسارت»، والأعمال الكاملة لـ «نجيب محفوظ»، وبوليصة للتأمين ضدّ الموت والعجز، وعدداً لا يفنى من دواوين الشعر والرواية الأخيرة «لجارثيا ماركيز» وحفنة من الأعداء الحاقدين).

قال:

ـ كُنّا فقراء يا حبيبتي. لا نملك ثمن صورة زفاف.

ردّت عليه:

ـ والوقت؟

ـ الوقت فرغ العمر، والسفر لحس أبداننا.

ـ لكني مصرّةٌ أن أتصوّر صورة الزفاف.

ـ بعد عشرين سنة جواز؟

ـ بعد ألف سنة.

نقر الترابيزة بإبهامه، ثمّ أسند رأسه إلى الحائط، وراح يتأمّل حجرة مكتبه.

ذلك اللون البنّيّ القاتم، لون حبّات البندق، وذلك المكتب العتيق ذو الطراز الرصين، وذلك الصقر المحنّط المفرود الجناحين، والمحبوس في أحد رفوف المكتبة، وتلك الصورة لهذه المنازل القديمة بعصرها «الباروكي»، وتمثال السيّدة الشابّة، الفاتنة، الذي اشتراه من بائعٍ جوّال يقف على قارعة الطريق.

سألها:

ـ والحلّ؟

ردّت:

ـ الحلّ أنْ أتصوّر الصورة.

تقلّصت عضلتا خدّيه، وافترّ فمه عن بسمةٍ باهتة:

ـ يا حبيبتي صورة الزفاف اللّي أنت بتتكلّمي عنها دي انتهى زمانها. دول عشرين سنة.

ـ دا قرار. حياتي معاك كوم، والصورة دي كوم.

كان يعرف إصرارها إذا ما أرادت. وكان يعرف أنّه ليس على ما يرام، يهرب من مواجهتها بالإصغاء للموسيقى الإلهيّة، ويدرك بغير ضنى أنّ مواجهتها معركة خاسرة، وأنّ هذه المرّة ليست مثل المرّات الأخيرة، وأنّه بات متأكّداً أنّ هوساً ما يسكنها، خاصّة بسبب تلك الصورة، وأنّها بالفعل قادرةٌ على تنفيذ تهديدها.

قال:

ـ لكن يا حبيبتي راجل زيّي تجاوز عمره الأربعين، يتصوّر صورة زفاف إزّاي؟

ردّت عليه مقاطعة:

ـ زيّ النّاس.

وكانا فيما مضى من سنوات إذا ما دخلا معاً إلى بيوت المعارف والأصدقاء تتسلّل وحدها من غير أن يشعر بها أهل الدار، وتقف تحت صورة زفاف معارفها وتظلّ تتأمّل، سارحةً بنظرها عبر الفستان الأبيض، والطرحة البيضاء، تتأمّل لحظة الزمن المثبتة خلف الزجاج في اللّون، وطعم الابتسامة، وتندفع صائحةً بصوتها الرنّان في الجالسين «صورة زفاف جميلة» ثمّ تصمت لحظة وتعود للصياح «رائعة»، ثمّ أقوم فأسحبها من يدها وآتي بها وهي مستثارةٌ وأُجلسها بجانبي حيث لا تغضّ طرفها عن الصور على الجدار.

اندفعتْ داخلةً إلى حجرة النوم، وخرجت تحمل على يدها ثوب زفاف أبيض وطرحة بيضاء، و«بوكيه» من زهور ملوّنة، وضعتها على المكتب ثمّ عادت إلى الحجرة وخرجت ببدلةٍ سوداء جديدة، وكرافتّة حمراء، وقميص أبيض.

قال:

ـ إيه ده؟

ـ فستان زفاف، وبدلة عريس.

أدرك أنّه بإزاء امرأةٍ لا يمكن التفاهم معها، وتأكّد أنّ الأمر قد خرج من نطاقه، وأنّ إتيانه بأيّ فعل من جانبه غير ما تريده سوف يدفعها إلى تنفيذ تهديدها.

حملت الفستان ودخلت مرّة أخرى إلى حجرة النوم.

بعد وقت قصير خرجت وهي ترتدي فستان الزفاف.

فستان من الدنتلاّ الموشّاة بخيوط الحرير. رسوم لفروعٍ نباتيّة مزهرة تنتهي ناحية شمس مخرّزة بأشعّةٍ تمتدّ على جسدها الحيّ. طرحة خفيفة من نسيجٍ غالي الثمن، تغطّي رأسها الجميل الدقيق، وصحبة الأزهار الملوّنة تحتضنها بحنوٍّ يثير الغرابة والدهشة.

(وأنا أقف مذهولاً تستبدّ بي الحيرة، أتساءل: ما الذي أصنعه بشأن ما يحدث أمامي؟ هل عليّ أن أكون واقعيّاً وأحقّق لها حلمها الغريب هذا؟ أم أجثو على ركبتيّ طالباً الفهم وحسن التقدير؟ من الذي استطاع أن يعيد ما مضى من أيّامه؟)

ـ يا حبيبتي فكّري في اللّي أنت بتعمليه.

ـ فكّرت ألف مرّة.

أمسكها من معصميها وسحقهما وصرخ في وجهها:

ـ ده جنون.

انـتزعت يدهـا منـه وقـد احمـرّت شرايـين عينيهـا، وردّت عليـه الصرخة:

ـ المجنون هو اللّي عايز يحرمني من أمنية صغيرة.

تنهّد بضيق، وخاف أن تبكي فـانسحب منهزمـاً ودخل في بـدلته الجديدة، وعندما خرج من الحجرة رأته وكأنّما تراه أوّل مـرّة. استبدّ بهـا الفرح المفـاجئ، واتّسعت ابتسامتهـا وأخذت تنفض لـه بذلتـه بكفّها في حنان، وتدور حوله قائلة:

ـ فاكر. مكانش عندك ليلة فرحنا بدلة تليق. خطفنا تـاكسي من بيت بابا حتّى الشقّة في «عين شمس» عند الخنازير. أنا لسّـه فاكـرة نظرة عينيك. كنت يائس وصعبان عـليّ. وأنا كنت حـزينة ولابسـة فستـان أيّ كلام. وكنت كلّما أشـوف محـلّ مصـوّراتي ينـدبـح قلبي. الليلة دي فاكراها كأنّها حصلت امبارح. تصوّر.

خرجا من باب الشقّة وهو معلّق بيدها، يهبطان درجات السلّم. هي غـير وجلة وهو يسقط في فـراغ شاهق كـأنّه الجبّ. مستشـار، لم يستطع حسم الأمر لصالحه. يدفع بنظّارته إلى وجهـه، ولا يستطيـع مفـارقة ضربـات قلبه، أو يعيـد لتنفّسه انتـظامـه. ودّ أن ينتهي من الأمر بسرعة ويعود إلى مكمنه، وأسره، حيث كتبه، وصوره القديمة على الحائط.

فـوجئت بهما الجـارة يـرتـديـان مـلابس العُـرس فشهقت بـرعب حقيقيّ، إلّا أنّ الزوجة لم تعطها الفرصة وابتسمتْ في وجهها بوثوق جعلها تطلق بغير إرادتها زغرودةً جلجلت في الأنحاء.

عنـدما كـانا في الشـارع أطلّت كثير من الـرؤوس من الشرفـات والنوافذ ترى ذلك الحدث الخارق ولا تفهم مـا يحدث. كـانت هي تشير بيدها ناحية الشرفات والناس وتتلقّى التهاني بمحبّةٍ خالصة.

أدار السيّـارة، وتحـرّكت «الستروين» قـاطعةً شـارع «الـطيران» متّجهة إلى ميدان «روكسي» حيث مصوّره الخاص.

دخـلا المحـلّ فقـابلتهـا إضـاءة خفيفـة تكشف عن الصـور في الإطـارات، وستارة حمـراء على الحـائط تنتهي بشراشيب تسقط على أرض الاستديو.

قال المصوّر للزوجة:

ـ اتفضّلي. المرايا من هنا.

انحنى المصوّر ناحيته وقال هامساً:

ـ مبروك يا بيه. زوجة تانية؟

رمى المصوّر بنظرة، وضغط أضراسه وأجابه:

ـ لا يا سيدي. دي المدام.

ملأت الدهشة وجه المصـوّر، وقال في نفسـه «الناس انهبلت» ثمّ عاد وقال في نفسـه «لكن وأنا مـالي»، ثمّ دخل إلى حجـرة التصويـر يضبط كشّافات الإضاءة.

على الجدار صورة لجندول، وزهريّة ورد صنـاعيّ، وعلى الحـائط عقال، وجاكتّة، وبذلة لضابط.

قال الزوج:

ـ صوّر يا سيدي.

استقام بجانب زوجته، وضبط الوقفة بالتمام، وأخذ ينتبه لزاويـة التصوير ويحاول بجهدٍ خارق أن يرسم على وجهه عـلامات الـرضى والابتهاج. في لحظة من زمن تـأمّلها بجـانب عينيه. كـانت عيناهـا تستحمّان في ضوء كشّاف التصويـر المشعّ، يلفّهـما وهجٌ مثير كلمعة الصباح.

قـال في نفسـه «مـا أغـرب تلك الحيـويّـة التي تتّصف بهـا بعض الأرواح».

قال المصوّر:

ـ بصّوا هنا. بلاش حركة. ابتسم يا أستـاذ حبّة. جميـل كده يـا مدام. وضغط زرّ آلة التصوير.

مرّ أسبوعٌ عاد فيه لتيّار زمنه. الكتب عـلى الرفـوف. أثاث حبّـات البنـدق، كـلّ قـطعـةٍ في مكـانها. «مـوتسـارت» يهبط من سمائـه. إحسـاسه بـأنّه أصبـح مُسِنّاً يـروعه. يـراقب الأقفال عـلى الحـائط، وكـذلك الصقـر المحنّط، ودفتر مـذكّراتـه، وأعمال «نجيب محفـوظ» الكاملة.

دخلتْ من الباب. كانتْ تحمل الصورة ملفوفةً بورقٍ مزخـرف، ومربوطةً بخيط. ذهبت إلى الجدار وانتزعت الصورة القديمة. فكّت الخيوط والورق، وعلّقت صورة الزفـاف الملوّنة عـلى الجدار. كـانت صورة كبيرة بدرجة لا تصدّق.

(ورأيتُها تقف تحت الصورة كمهـرة برّيّـة، تعدو في اللّون نـاحية البراح، وتستعيد أمنيـاتها. رأيتُ في عينيهـا شرارات النار، تبـدو في الصورة وقد عادت صبيّةً متوّجةً بالطرحـة وصولجـان الورد، وكـأنّها العـروس الخالـدة في يوم عـرسها الأوّل. تقف في الصـورة وتحتها، بامتلاءٍ كأنّه العشق، فيما يقف بجانبها رجلٌ لا أعرفه، يـبرز كرشـه من حزامه وقد امتلأ رأسه بالشيب، وانطفأ منه نور العين).

القاهرة